المحاضرة الثانية: التفكير النظري في علم الاجتماع

تقديم:

لعل النشأة الحديثة لعلم الاجتماع واكبها جدل عميق حول المناهج والأطر العلمية، وكيف ندرس المجتمع دراسة علمية تتميز مناهجها ونتائجها بالدقة العلمية والموضوعية التي تتمتع بها العلوم الدقيقة.

إن تساءل علم الاجتماع لا ينتهي الا حين تكون الحياة الاجتماعية قد اكتملت دراستها، وهو أمر لن يكون لخصوصية الظاهرة الاجتماعية والعلوم التي تهتم بدراستها، وبهذا يكون كل شيء قابلا للبحث والنقد والمساءلة العلمية مهما كان دوره في المجتمع، مؤسسة أم نظام أم شخص.

غير أن غياب موقف نظري واحد يجمع عليه علماء الاجتماع إزاء قضايا بحثية بعينها، لا يمثل نقطة ضعف بل يدل على ثراء وغنى الدراسات في العلوم الاجتماعية، كما ان الدراسات الميدانية على ثرائها وتنوعها لم تسلم من هذا الجدل والاختلاف فالسلوك الإنساني يحمل من التعقد والتعدد ما يجعل الباحثين يتبنون نفس المنطلقات في دراسة ظاهرة ما ويصلون الى نتائج مختلفة.

فتعدد النظريات في علم الاجتماع يعود إلى أن الإنسان والمجتمع موضوع دراسة علم الاجتماع، وهما متغيران باستمرار. **لذلك**، يحاول علماء الاجتماع تطوير نظريات جديدة لتفسير التغيرات المستمرة في المجتمع والتي تؤثر على السلوك الاجتماعي للأفراد. وبالتالي، يمكن للنظريات الجديدة أن تساعد في فهم الظواهر الاجتماعية الجديدة وتوضيحها، وتحليلها بشكل أفضل.

فبرزت نظريات سوسيولوجية لا حصر لها وهناك من اتخذت اشكالا تفسيرية تقترب من الرياضيات والفيزياء والاقتصاد من حيث المفاهيم وطرائق التحليل والتفسير، ويرى روبرت ميرتون أن النظرية السوسيولوجية تهدف الى إعطاء تفسيرات شاملة للظواهر الاجتماعية غير أنه على علماء أن يكونوا أكثر تواضعا ويعملون على التركيز على ما يسميه بالنظريات متوسطة المدى. بدلا من تبني النظريات العملاقة التي تحاول تفسير كل شيء.

فكلما كانت النظرية أكثر اتساعا وشمولا كلما ازدادت صعوبة اختبارها بشكل امبريقي في الواقع الاجتماعي، فمثلا دراسة ماكس فيبر عن الاخلاق البروتستانتية وظهور الرأسمالية جاءت تأكيداً لدور القيم الدينية في نشأة النظام الرأسمالي,

أجري فيبر دراسات تفصيلية عن الصين والهند، حيث أوضح أنهما كانا في ظروف اقتصادية مشابهة لتلك التى وجدت في أوربا، ومع ذلك فلم تنشأ فيهما الرأسمالية بصورته الغربية المعروفة، ويرجع السبب في ذلك إلي أن القيم الدينية فى كلا المجتمعين لم تكن ملائمة لظهور الرأسمالية، فالكونفوشيوسية في الصين والهندوسية في الهند، لم يتضمنا قيماً تحض على العمل والانجاز وتراكم الثروة، وإنما تضمنتا علي العكس من ذلك قيماً لا تؤدي إلي ظهور الخصائص الرأسمالية.

فالكونفوشيوسية تلغي أى رؤية مستقبلية للإنسان، وتقدس الوضع الراهن، وبالتالي فإن إرادة التغيير ليست واردة، ولا يختلف الحال كثيراً فى الديانة الهندوسية، فهي تؤكد علي احتقار العالم، وإدانته، ومن ثم ضرورة الإنسحاب منه، وعدم العمل علي ترقيته وتنمية والمشاركة في تفاعلاته، لقد فرضت علي معتنقيها موقفاً صوفياً منعزلاً بعيداً عن العالم، يأكل منه ولا يعمل فيه، يعيش فيه ويتمني أن لا يكون به، يدينه ويحتقره، ومن ثم يعجز عن المشاركة فيه أو التكيف معه، بحيث يشير كل ذلك إلي موقف سلبي كامل أمام حتمية بالغة التطرف.

لقد حاول فيبر أن يثبت بأدلة عديدة الدور الذي تلعبه القيم بشكل عام فى الحياة الاجتماعية, وفي الجانب الاقتصادي بشكل خاص, غير أن ذلك لا يعني أن فيبر كان حتميا، علي العكس فقد رفض فيبر التفسيرات الحتمية، وعندما يؤكد علي العلاقة بين القيم الدينية وظهور الرأسمالية، فإنه يري أن الدين هو أحد العوامل المؤثرة فى ذلك، وليس هو العامل الوحيد، ويؤكد ذلك بعبارته: " لا أهدف إلي استبدال الأحادية المادية بآحادي روحية في تفسير الثقافة والتاريخ, فكلاهما علي نفس الدرجة من الأهمية" ولم يهمل فيبر العوامل الاقتصادية, وكان يسلم بتأثيرها بجانب العوامل الأخري

والواقع أن النظريات الحديثة لعلم الاجتماع ظهرت لوضع مسارات جديدة للنظريات المتعلقة به، وقد استند على أسس النظرية الاجتماعية التقليدية، وأفكار ووجهات نظر علماء ومفكرين علم الاجتماع، مما أسهم في تطور نظريات ومناهج علم الاجتماع.

غير أن مفهوم المأزق أصبح عنوان للتفكير في النظرية السوسيولوجية، والمأزق في النظرية الاجتماعية يشير إلى وضعية يصعب فيها تحقيق الأهداف المرجوة بسبب وجود عوامل متعارضة أو متناقضة. في النظرية الاجتماعية، يمكن أن يحدث المأزق عندما تتعارض النظريات المختلفة أو عندما تتعارض النظريات مع الواقع الاجتماعي . ومن الممكن أن يحدث المأزق أيضًا عندما يكون هناك تناقض بين الأهداف المرجوة والوسائل المستخدمة لتحقيقها.

يشير التعارض في وجهات النظر المختلفة إلى عدد من المآزق النظرية التي لا تزال قائمة حتى الآن في علم الاجتماع المعاصر، وتتجلى إحدى هذه الاشكاليات المهمة في العلاقة القائمة بين الفعل البشري من وجهة والبنية الاجتماعية من جهة أخرى، فهل نحن صنّاع المجتمع أم من صنائعه، وقد لا يكون الخيار بين هذين البديلين عصياً كما

يبدو في ظاهر الأمر، غير أن المشكلة الحقيقية تكمن في كيفية الربط بين هذين الجانبين في الحياة الاجتماعية.

وهو ما يخلق نقاشات حادة وجدلا عميقا بين علماء الاجتماع يصطلح عليه بمفهوم المأزق الذي رسمته اربع قضايا أساسية ظلت مثار جدل سوسيولوجي وجعلت النقاش ثريا ويتجدد في كل مرحلة ويؤسس لقراءات نظرية جديدة.

أسئلة للتمعن والتفكير:

ماهي هذه المآزق السوسيولوجية الأربعة؟

هل يمكن تجاوز المأزق السوسيولوجي؟ وكيف؟

هل مجتمعاتنا الحالية تحتاج الى حسم النقاش في تلك القضايا أكثر من حاجتها لبناء معرفة سوسيولوجية تفهم الحياة اليومية وتعقيداتها؟